أنا الشعب

للأستاذ
محمد فريد أبو حديد

بقلم فتحى الأبيارى

من أشق الموضوعات الفنية على الفنان القصاص ، أن يتناول فى عمله الفنى موضوعا وطنيا • والسبب فى ذلك أن المادة الوطنية تحتاج الى يقظة تامة من الفنان عند صياغتها فى قالب فنى أصيل ، بحيث لا يخرج الينا النص الادبى وخاصة القصة عبارة عن مواقف وعظ وارشـــاد مملة ، أو أحـــداث لا تتمشى مع أصول المنطق ، والأساليب الفنية فى القصة • وبالرغم من تلك العوائق ، **اتخذ الاستاذ محمد فريد أبو حديد الفائز بجائزة الدولة التقديرية هذا العام ، موضـــوع قصته الطويلة «انا الشعب »** من أعماق القاعدة السفلى •• والطبقة المتوسطة • وطبقة الاســـتقراطية المنقرضة •واتخذ رمزا للطبقة المكافحة هو « سيد افندى زهير » وهو بطل القصـــة

فكيف استطاع الاديب الكبير أن يفلت من مصيدة البعد عن واقعية العمل الفنى فى القصة الوطنية ، والى أى حد كان موفقا •

وتعتبر هذه القصة بالذات من أحب الاعمال القصصية لدى الاستاذ ابو حديد ، ويرجع السبب فى ذلك كمـــا يقول « اننى كتبتها قبل الثورة فى سنة ١٩٥١ على التحديد ، ثم نشرت هذه الرواية فى ظل الثورة ، وقرأها الناس • فاحسست أننى شاركت فى حركة « الضمير » العامة • وضعت حجرا فى البناء الذى كنا نحلم بأن يوجد •• **التفاف الشعب حول الزعيم** » اذن فقد كانت القصة **ارهاصا بالثورة** •• ولكن . ما هو الاسلوب الذى انتهجه الاستاذ محمد فريد أبو حديد فى البنـــاء الفنى لقصة « أنا لشعب » •

وضع لنا المؤلف شخصية « سيد زهير » ليحكى لنـــا أحداث القصة بطريقة الترجمة الذاتية فى أربعة وثلاثين فصلا • ومن خلال الفصول العشرة الأولى قدم لنـــا «سيد زهير» نفسه ، وأحداث طفولته • فقد توفى والده عندما كان على وشك دخول امتحان شهادة الثقافة العامة • وأثرت حادثة وفاة الاب على الاسرة ، مما دفع سيد الى أن يبحث عن أى عمل ليساعد أمه • ويحتك «سيد» بالحياة العامة ،وتكتشف له معادن الناس •• وخبايا المجتمع • فعندما أراد أن يلتحق بوظيفة فى مجلس المديرية ، كان عليه أن يدفع خمسة جنيهات كرشوة • فلم يســـتطع • وعندئذ ذهبت به أمه الى أسرة «السيد احمد جلال» صاحب المحلج ، والذى كان جارا لأسرة سيد فى يوم ما • وألحقه السيد جلال • بالعمل عنده فى المحلج ، ليزن بالات القطن ، ويكتب الارقام عليها •

وشخصية « سيد زهير » من الشخصيات النـــامية ، وهى الشخصية الوحيدة الرئيســـية التى حشد لها الاستاذ محمد فريد أبو حديد كل الاحداث والشخصيات

الثانوية المسطحة لكى تلقى الاضـــواء على تلك الشخصية التى ترمز الى الشعب ٠ « وسيد زهير » مر بمراحل ثلاث خـــلال فصول القصـــة ، المرحلة الاولى ٠٠ مرحلة الطفولة والصبا ، والثانية تبدأ عندما ترك دمنهور وسافر الى القـــاهرة ليشترك فى مقاومة الاوضاع المقلوبة ، ومساندة الحركات الشعبية المطـــالبة ، بتذويب الفوارق الاجتماعية ، واعادة الحقوق المغتصبة من الشعب الكادح ـ والمرحلة الثالثة تبدأ منذ دخوله السجن ، وصراعه ونضاله بعد الافراج عنه فى سبيل المبدأ الذى اعتنقه ٠

ففى المرحلة الاولى وفق الكاتب ، فى ابراز كل النواحى النفسية والاجتماعية لشخصية «سيد زهير» ، فهو مكافح ، طموح ، له نزعة أدبية ، فقد كتب مقالة ونشرها فى جريدة «النبراس» بدمنهور ، وألف مسرحية لتمثلها فرقة الرفاق ، ولكنها فشلت بسببه ، واستطاعت بعض الشخصيات الفرعية المسطحة مثل شخصية «حمادة الاصفر» الصبى الشرير ، وصديقه عبد الحميد وأمه تلك الشخصية السلبية التى لم تقم بدور ايجابى تأثيرى على «سيد» أما « السيد أحمد جلال » ٠ فهى الشخصية التى كان لها أثر عميق فى نفسية سيد الصافية ٠ فقد ألحقه بمحلجه ٠ وكان يرسله الى بيته حيث التقى «سيد» «بمنى» ابنة السيد جلال ، فاحبها ، لكن خشى أن يبوح لها بحبه طوال القصة ، بسبب الرواسب الطبقية فى أعمـــاق نفسه ، كيف يمكن له ، وهو الذى يعمل وزانا عند الاب فى المحلج ، أن يتطاول ويســمح لنفسه أن يطلب يد « منى » ابنة الاسياد !!!

وكانت شخصية «مصطفى عجوة» المنافقة الدساسة سببا فى فصل « سيد » من عمله فى المحلج ٠ وتألم « سيد (لأنه طرد ظلما بسبب الحسة والنفاق ، ولم يحزن على شىء حزنه على فراقه لمنى ، وعدم رؤيتها بعد ذلك لأنه قطع علاقته بوالدها ، ثم اتجه سيد الى ميدان التجارة ، ونجح فيه ٠

وحل موسم الانتخابات ، فكرس «سيد» وقته وماله هو وصديقه «عبد الحميد» لنصرة « العجمى » الذى كان زميلا له أيام الدراسة والذى رشح نفسه ضد « السيد جلال » الانتهازى ، والباشا محمد خلف ولكن القوى الاستقراطية اكتسحت المعركة ، بأموالها ، ونفوذها ، وباستغلالها لنواحى الضعف فى نفوس الطبقة الكادحة ٠ فقد تمكن السيد جلال من ازاحة «سيد» من ميدان المعركة بأن استغل نفوذه لدى الشرطة، وتم القبض على « سيد » بتهمة العيب فى الذات الملكية ، تلك التهمة التى كانت السوط القاسى فى يد الطبقة الارستقراطية ، والمتمسحين فى أعقابهم ، لضرب أى فرد يتشدق بالكرامة ، وبحقوق الشعب ٠ وتمت خطبة «منى» لابن محمد باشا خلف الذى تنازل عن الترشيح لصهره الجديد « الســـيد أحمد جـــلال » ٠ والانتصار الثالث هو تنازل «العجمى» عن الترشيح لقاء تعويض كبير دفعه اليه السيد جلال ٠

كل هذا كان بالنسبة « لسيد » صدمة كبيرة ، وخاصة عنـدما علم أن الذى تسبب فى اعتقاله ، والافراج عنه كان السيد جلال ٠٠ وقد أخبره صديقه عبد الحميد بكل ذلك ٠ مما جعل «سيد» يحدث نفسه بصوت عال قائلا ص ١٦٨ «**انها مخزاة ان نعيش فى مجتمع كهذا ٠ الرجال عبيد يساقون بالسياط أو يشترون بالمال ، والنساء**

أيضا يعرضون فى أسواق الرقيق كما كانت الجوارى تشترى • الذهب هو المعبود ، ومن أجل الذهب يبيع الجميع كل ما عندهم حتى الحرية ، والكرامة ، وحتى الحب •• هى معركة أكبر خطرا ولا تتسع لها دمنهور » •

وعندئذ سلم عبد الحميد خطابا الى (سيد) من صديقه « على مختـار » رئيس تحرير جريدة «بريد الاحرار» فى القاهرة • وجاء فى الخطاب تعيين «سيد» محررا فى « بريد الأحرار » بمرتب شهرى •• (عشرون جنيها !!!) عدا أجر القصص ، والقصة الواحدة بخمسة جنيهات •

والذى يؤخذ على المرحلة الاولى من شخصية « سيد » هو الحشو الذى لاطائل له فى كثير من المواقف والاحداث وأن المؤلف لم يكن موفقا فى المجال القصصى وخاصة عندما أراد أن ينقل « سيد » الى عالم الصحافة • فليس من المعقول أبدا أن تطلب جريدة تصدر فى القاهرة تعيين شاب من دمنهور مثلا يعمل محررا فيها لأنه قد نشر فيها قصة • خاصة وأن « سيد زهير » لم يحصل الا على الشهادة التوجيهية • ويكفى أن يعرف المؤلف أن صحافتنا الآن بما وصلت اليه من تطور وازدهار ، لاتعين المتخرجين فى قسم الصحافة والذين يحملون مؤهلا عاليا الا بعد مرور ستة أشهر تحت التمرين مجانا • ثم بمكافأة قدرها خمسة جنيهات • واذا تم تعيينهم ، فان الجريدة تدفع لهم مرتبا لايزيد عن العشرين جنيها حسب القـانون الجديد الذى لم يظهر الا فى العام الماضى فقط !!!

والشىء الآخر أن أية جريدة ، لا تدفع لمحرر عندها ثمنا لقصة نشرها فيهـا ، وانما تستكتب بعض الكتاب المشهورين لكى تضمن قراء جددا يشترون الجريدة • ونقطة أخرى هامة ، أن المؤلف نسى أن الصحفى الذى يكتب بابا ، أو ركنا يوميا فى أية جريدة ، لابد أن يكون قد مضى عليه فى الصحافة أعواما طويلة ، بحيث تفرد له الجريدة مساحة معينة ، ليعبر فيها عن رأيه ، وعن رأى الجريدة • خاصة وأن جريدة مثل « بريد الاحرار » تلقى معارضة شديدة ، وحربا شعواء من الطبقة الارستقراطية، وأصـحاب الاستغلال • فلم يكن معقولا « لعلى مختار رئيس التحرير •• أن يعهد « لسيد زهير » كما جاء فى القصة تحرير باب ثابت ، أدى فى نهاية الامر الى مصادرة الجريدة ، واعتقال « على مختار وسيد زهير » •

وقد تعرضت لهذه النقطة بالذات ، لأنها تعتبر المرحلة الثانية الهـامة فى شخصية « سيد » وبالتالى •• فى شخصية الشعب المهضوم الحـقوق • فقد أراد الكاتب أن يعبر عن الثورة، وعن الغليان فى صدور الشعب المسكين•• بتلك الطريقة، التى يكشف عنها فى الحوار الذى دار بين سيد وصديقه عبد الحميد ، عن فلسـفة الثورة •• التى يجب غرسها فى الصدور عن طريق الادب والكتابة ، والتعبير عن كل هذا بالكلمة •

« فيقول له صاحبه » :

ـ كأنك تريد الثورة •

فقلت فى غيظ : أتريد أن ترهبنى بهذا السؤال ؟ نعم اريد الثورة ولا شىء غير الثورة ٠

فهز رأسه قائلا : أنا أخالفك هنا ٠٠ الثورة الشعبية تدمر ولا تفكر ولو فرضنا أن الثورة نجحت فانها لن تجد الشعب الذى يحسن الاستفادة منها ٠ قد نرضى عن الثورة التى تدمر اذا جنينا من ورائها خيرا ، ولكن الثورة التى لايستفاد منها لاتكون الا شرا محضا ٠

فقلت فى عنـاد وماذا يمنع من أن نستفيد من الثـورة ؟ لقد قرأت كثيرا عن ثورات التاريخ وتعلمت من ذلك حقيقة واحدة خالدة نحن جميعا من البشر وفينا جميعا عناصر الخير والشر ، وفينا عناصر القوة والضعف ٠ فى نفوسنا الانانية والتضحية ، وفينا الشجاعة والجبن ، وفينا العدل والطغيـان ، نحن ننطوى فى الوقت عينه على السماحة واللؤم وعلى السمو والاسفاف ٠ من الممكن أن تتغلب علينا عناصر الخير ٠٠ العبرة بالقوة التى تثير هذه العناصر أو تلك ٠

فقال فى هدوء : عظيم ياسيدى ٠ ولكن هل نسيت أنك تجعل كل الامور متوقفة على شرط غير موجود ؟ أين هذا المحرك الذى يبعث عناصر الخير ؟ ٠٠ هـــذا المحرك لاوجود له الا فى داخلنا ، وعلينا أن نخلقه فى الناس بالادب والتربية ٠

فقلت فى عناد : المسألة مثل الحلقة المفرغة ٠ لن نستطيع أن نصـلح داخلنا ما دامت السيادة فى أيدى الانذال والاشرار والسفلة ٠ ولانستطيع أن نصلح أمورنا الا اذا أصلحنا داخلنا ، حلقة مفرغة لانعرف أين طرفاها ٠٠

ليس أمامنا الا أن نثور على هؤلاء السادة المفسدين لنخلع عنا نيرهم ونحل فى محلهم من يثير فى الناس عناصر الخير ٠ نحن الشعب ٠٠ نحن العبيد المحطمون ٠ علينا أن نثور اذا شئنا أن ننجى أنفسنا من العار ، ونحمى ظهورنا من ضرب السياط ٠ الثورة ٠٠ ولاشىء غير الثورة !!!

وشىء آخر يدل على الافتعال ، وهو كيف يمنح على مختار «سيد زهير» مبلغ مائة جنيه ليشترى بها بدلة ولوازمها لحضور حفلة الســادة المفسدين ليكتب عنها تحقيقا ان هذا لم ولن يحدث فى عالم الصحافة !!!

***

تلك كانت بعض المآخذ على المرحلة الاولى من شخصية «سيد زهير» ٠ أما المرحلة الثانية ، فقد بدأها فى العمل فى جريدة «بريد الاحرار» كاشفا فساد الطبقة المستغلة التى تمتص دماء الشـــعب ، لتنعم هى بالرفاهية واللذة الماجنة ٠ وذلك فى كتاباته وتحقيقاته المستمرة ٠ ولكن كيف يصبح «سيد زهير» كاتبا صحفيا معروفا ، يعطيه «على‌مختار» مائة جنيه ليشـــترى بها بذلة ٠ ثم يعيش فى غرفة فوق السطح بمنزل ببولاق ، حيث كانت تخدمه بنت صاحب المنزل «فطومه» ويستطرد المؤلف فى بعض مشاهد ومواقف بين «فطومة» و «سيد» لا تؤثر على‌مجرى الاحداث فى شىء ٠ ولو حذفنا

كل تلك المشاهد والمواقف ، لما اعتز بناء القصة فيد شعره • ولكنه استطراد وحشو، يلحظه أى ناقد على الفور عند قراءته للقصة •

ويتعاون • على مختار مع سيد ، فى كشف النقاب عن عفونة خبايا المجتمع اللاهى، ولكن سرعان ، ماتصادر الجهات المسئولة أعداد الجريدة وتعتقل سيد و «رئيس التحرير • وفى تلك الأثناء يموت السيد جلال ، متأثرا بصدمة نفسية أصابته بسبب الفضيحة • فقد كان يعاشر احدى الســـاقطات فى دمنهور معاشرة سرية بعقد زواج عرفى ، وقد ولدت منه ولدا • ثم استغل حمادة الاصفر هذا السر فى ابتزاز الاموال من السيد جلال الذى لم يحتمل أثر الصدمة • وعندما يعلم «سيد زهير» بتلك القصة تتملكه الشهامة ويشترى قسيمة الزواج العرفى بمبلغ مائة جنيه لينقذ شرف السيد جلال بعد وفاته • وقد فعل كل ذلك بسبب حبه الدفين لمنى •

وانتهى نضال «سيد» وكفاحه المستمر فى الجريدة الى السجن، حيث قاسى مرارته ثم خرج منه • ليواصل النضال • ولكنه فوجىء بفتور عزيمة «على مختار» لان اليأس تسرب الى قلبه ، ويسأل «على مختار سيد» عن سبب مواصلة النضال ، فيجيبه الآخر قائلا •

ـ من أجل من ؟ •• من أجل أنفسنا من أجلك ومن أجلى ومن أجل كل من يعيش ويتألم •• من أجل أبنائنا الذين سوف يتألمون (ص٣٤٨)

ولكن «على مختار» يصر على مغادرة البلد ، لانه لا يســتطيع مواجهة كل القوى الطاغية التى استطاعت أن تعتقلهما وتذيقهما الوان العذاب ، ولكن «سيد» يقول له :

ـ بل ماذا تصنع فى غير هنا ؟ •• هنا بلادنا ولا مفر لنا من أن تكون هى بلادنا أى بلد تقبلك كأحد أبنائه ؟ ••

أتقبلك انجلترا أو فرنسا •• أو أمريكا أو غيرها لتكون ابنا من ابنائها ؟ •• لن تكون هناك الا نزيلا غريبا تقضى أيامك فى فراغ • أم تريد أن تذهب الى بلد شرقى يمكن أن يكون أقرب اليك ؟أين ؟ : تعيش فى تركيا ؟ فى سوريا ؟ العراق ؟ •• فى السودان ؟ تعيش هناك على هامش الحياة وأهل تلك البلاد يجاهدون كما نجاهد نحن؟ هل ترضى ان تكون غريبا بين قوم يجاهدون من أجل أنفسهم وانت ســاكن ؟ •• أم تريد أن تشارك هؤلاء فى جهادهم وتتخلى عن الجهاد هنا ؟

وبعد مناقشات جدلية ، تتدخل فيها الاحداث فى البلد ، ينفعل «على مختار» ويعاود الكفاح مرة أخرى • وقد رمز المؤلف بعلى مختار ، تلك الفئة من الشعب التى تملكها اليأس ، واستكانت بعد أن رأت بطش الطبقة الفاسدة •

ووقعت المفاجأة ، فقد فوجىء الناس بأن القاهرة تحترق ، ثم اشتراك سيد فى جمعية «شبان الفداء» ، وهى رمز يخيل الى أنه كان ارهاصا ، بجماعة الضباط الاحرار ثم ظهرت حوادث الاسلحة الفاسدة ، وسقوط الحكومات فى أسابيع قليلة • وتساءل الشعب أو بمعنى أصح تساءل «سيد زهير» **أين تنتهى هذه المهازل التى يمثلها صغار فى أسماء منفوخة •الى أين نصير ؟ ولم يكن لهذا السؤال الا رد واحد •• ثورة أخرى مثل التى وقعت فى ٢٦ يناير • ولم لا ؟ •• غير انى كنت أعود دائما فاقول •• وماذا**

نجنى من مثل تلك الثورة ؟ .. وماذا يجنى الجسم العليل الذى تسممت دماؤه من انفجار جلده بالقروح ذات الصديد ؟ ..

وعندئذ يكشـــف المؤلف عن نفسه ، فاختلط على الامر ، هل الذى كتب تلك القصة هو «سيد زهير» .. أم محمد فريد أبو حديد اذ كتب يقول :

« والآن تقترب نهاية القصة على فجأة كما تنتهى القصص الرديئة ، وان كنت أعتذر عن هذه النهاية المفاجئة بأننى لم أتعمدها لأن المقادير هى التى جعلتها تنتهى فجأة ...

فقد اتفق وقوع حادثين فى وقت واحد ، بل فى ساعة واحدة ، كانت فيها نهاية القصة . فأما الحادث الاول فهو اننى كنت جالسا الى جانب المذياع استمع الى القرآن الكريم والى أخبار اليوم الجديد ، فاذا صوت ينطلق معلنا قيام ثورة فى الجيش. وأما الحادث الثانى فانى ما كدت أعود الى شقتى المتواضعة فى باب الخلق ، حتى وجدت برقية تنتظرنى « تم الاتفاق وفى انتظارك اليوم حسب الاتفاق «منى» .

***

لقد كانت حبكة القصـــة ، فى الجودة والاتقان بحيث تجعل القارىء فى أعماق الأحداث والمواقف . ولكن بعض الاستطرادات والمواقف الجانبية التى يمكن بسهولة أن نستغنى عنها ، أضعفت من روعة التماسك الفنى للقصة ككل . أما الحوار ، فجاء على لسان الشخصيات سلسا ، رائقا . وابتعد عن الألفاظ المتقعرة ، بل لقد أورد المؤلف بعض عبارات فى الحوار تبدو للوهلة الاولى عامية ، ولكنها فى حقيقة الامر من اللغة الفصحى القريبة من العامية ، وقـــد استعمل ذلك الحوار عن لســـان « أم سيد » «وفطومة» «وحمادة الاصفر» ...

وتعتبر قصة « أنا الشعب » من معالم أدبنا الارهاصى بالثورة . صور فيهـــا الكاتب ، جميع نواحى المجتمع المتعفن من رشوة ، وفساد فى الحكم ، واضطهاد للرأى الحر ، واستغلال للسلطة وضياع الكرامة ، والشخصية فى سبيل الذهب . من الحقير مثل «حمادة الاصفر» الى السيد جلال . هذا يبيع نفسه من أجل القرش ، وذاك يبيع ابنته ليكسب معركة انتخابية . ونجح الكاتب فى التعبير بصدق عن المواقف والمشاهد التى احتوتها القصة . لتتبلور أخيرا .. فى الصرخة المدوية التى أطلقها «سيد زهير» وهو فى السجن .. « أنا الشعب » .. .. «أنا الشعب » .